(٦)

النظرية في مجال التطبيق:

الإبداع العمراني الذي قاده سلمان في الرياض.

obeikandl.com

obeikandl.com

الإبداع: ثمرة التوحيد في

الحضارة العربية الإسلامية

إن ركن الأركان وأصل الأصول في الإسلام هو: توحيد الله جل ثناؤه.. وإن سائر التعاليم والشعائر والشرائع الأخرى إنما جاءت لتوكيد وتعميق وتعزيز وتأصيل حقيقة التوحيد في النفوس والعقول.. والحياة بوجه عام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[1].

وهذه الصبغة الإيمانية التوحيدية في حياة المسلمين كان لها أثر وثمر بلا ريب.

ومن هذه الآثار المشاهدة، والثمار الملموسة: (الإبداع العظيم في الحضارة العربية الإسلامية) في المجالات كافة.

ويصعب -بداهة- استقصاء إنجازات هذه الحضارة الكبرى وإبداعاتها.. ولذا سنضطر إلى تقديم نماذج وصور.

١- كان للجغرافيين العرب والمسلمين (إبداعاتهم الفلكية) من حيث إن للجغرافيا الكونية علاقة بالفلك.

---

(١) الأنعام: ١٦١-١٦٢-١٦٣.

فهل كان هذا الإبداع منفصلاً عن الإيمان والتوحيد؟

لا.. بل كان الإبداع منبثقاً من الإيمان، هاتفاً باسم الله.

٢- أبو عبدالله بن أبي بكر الزهري (٥٤١هـ - ١١٥٤م) له إبداعات جغرافية فلكية منها - مثلاً -: البرهنة المستفيضة على (كروية الأرض).. يقول الزهري: «فأما من قال: (سطح) فلا يقوم له برهان، وأما من قال: (إنها كروية) فله في ذلك البراهين الواضحة، والدلائل البينة منها: جري الماء، واختلاف النظر في الفلك، وقِصَر الظل، وقِصَر الليل، وطول النهار، وإيلاج بعضهما في بعض، واختلاف دَرج المطالع. ولو كانت الأرض سطحية لم يكن في الفلك من هذا كله شيء»[١].

فكيف افتتح هذا الإبداع المبكر؟ وفي ظل أي مبدأ جهر به؟ في ظل (لا إله إلا الله) لنقرأ عبارته الافتتاحية ولنشاهد رايته التوحيدية.. يقول الزهري: «خير ما استفتح به الكلام، حمد لله الواحد العلام ثم الصلاة على خير الأنام، محمد عليه السلام وعلى آله وصحبه الطاهرين الكرام»[٢].

(١) عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ٤٧٥-٤٧٦.
(٢) المرجع السابق ص ٤٧٤.

٣- شـهاب الدين أحمد بـن ماجد (النجدي) علم من الأعلام العالميين المبدعين في علوم البحار: تنظيراً وتطبيقاً، وقد عاش في القرن الثامن والتاسع للهجرة.

وقـد ارتبط إبداعه أو ابتكاره (البحـري) بالتوحيد.. يقول مثـلاً فـي أرجوزتـه -حادية الاختصـار فـي أصـول علوم البحار-: «كان التصـنيف لمثل هذه الأرجوزة، زكاة الإفهام وتجديد ما درسته الليالي والأيام، ووضعت فيها من الألفاظ الغريبـة، والحكمة الربانية بمشـيئة الله تعالـى ما أرجو به انشراح صدور ذوي الألباب»[١].

٤- زكريـا القزوينـي (٦٨٢هـ - ١٢٨٣م).. لـه إبداع مهم عن (أثر الشـمس) في البيئـة الطبيعية.. يقول: «الشـمس هي أعظم الكواكب جرماً وأشدها ضوءاً»[٢].

ولقد استصحب عقيدة التوحيد وهو يتحدث عن إبداعه هذا إذ قال: «ومن لطف الله أن جعلها في وسـط الكواكب لتبقي الطبائـع والمطبوعات في هذا العالـم بحركتها على حدها الاعتدالي»[٣].

(١) المرجع السابق ص ٦٢٢.
(٢) المرجع السابق ص ٥٠٥.
(٣) المرجع السابق ص٥٠٦.

٥- ابن رشد: طبيب وفيلسوف من نبت الحضارة العربية الإسلامية.. ولقد ربط بين إبداعه في التشريح وبين التوحيد فقال: «من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيمانا بالله».. وعبارته هذه مطابقة لعبارة سلمان: «الإبداع في ظل لا إله إلا الله».

٦- ومنذ قليل قرأنا كلمات جون بادو أستاذ الفلسفة في جامعة كولومبيا وهي «وإذا كان التفاعل قد أسفر عن حضارة مثيرة للإعجاب فذة الشخصية، فالفضل في ذلك يعود إلى العقيدة الإسلامية التي فجرت طاقات العرب؛ إذ كان الإسلام حاسم الأثر في مسار الإبداع الثقافي».

٧- بوجه عام فإن قصة (الحضارة العربية الإسلامية) إنما هي دفق مبارك وجميل ورائق من نهر التوحيد والإيمان، سواء تمثلت هذه الحضارة في العلوم: كالطب والفيزياء والكيمياء والفلك والزراعة، أو تمثلت في الفن المعماري المتنوع الصور والأشكال والإبداعات غير المسبوقة: الصحية والبيئية والجمالية والقيم السكانية.

obeikandl.com

إبداع الملك عبدالعزيز

ثمة اتفاق بين المؤرخين والمفكرين: العرب والأجانب على أن الملك عبدالعزيز انطلق في نهضة وبناء (دولته) من (عقيدة) التوحيد ومن الإيمان القوي بالله سبحانه وتعالى.

قد يختلف هؤلاء في تحليل الظروف والتحديات الاجتماعية والسياسية التي واجهته على المستويات: الوطنية والإقليمية والعالمية، ولكنهم لا يختلفون في حقيقة أو مسلّمة (المرتكز الإيماني) الذي انطلق منه وارتكز عليه.

ويتعزز هذا الاتفاق أو الاجماع بطبيعة المشروع الذي قاده الملك عبدالعزيز ونجح فيه.. فهذا المشروع متعدد المجالات متنوع الصور والأشكال بيد أن (عقيدة التوحيد) هي قوامه وعماده.

فعقيدة التوحيد كانت الأساس المكين لمشروع الملك عبدالعزيز الضخم، وكان هذا المشروع نفسه في الوقت ذاته مشروعاً (إبداعياً تجديدياً حضارياً ضخماً)، امتد في الزمان والمكان حتى يوم الناس هذا: امتداد رسوّ ورسوخ، وامتداد نمو أفقي ورأسي، كمي ونوعي، وامتداد تكيف وتفاعل مع المبدأ والبيئة والعصر والعالم.. وحقائق الجغرافيا والتاريخ تشهد بأن الطريق أمام هذا المشروع لم يكن سهلاً ممهداً بل امتلأ

زمان هذا المشروع وامتلأ مكانه بالتحديات العظمى من كل نوع، وعلى كل مستوى، ففي ختام العقد الثاني من القرن الرابع عشر للهجرة (١٩٠٢م) بدأ الملك عبدالعزيز رحلة التأسيس والبناء من الرياض.

فكيف كانت الظروف والأحوال في تلك الحقبة؟

على المستوى المحلي واجه المشروع الحضاري البازغ تحديات عاتية وكثيرة، منها قوى الخرافة والجهل والتخلف ومقاومة الجديد.

واجه قوى النهب والسلب والسطو والإفساد في الأرض، وكانت البلاد (صفراً) تقريباً في الإدارة والحياة المدنية المنظمة، وكان حظ البلاد من الحداثة العلمية والتقنية التعليمية لا يكاد يرى أو يلمس.

وواجه المشروع حالة بائسة من التفتت المروّع: التفتت الفكري والاجتماعي والسياسي والجغرافي، فلم تكن قلوب الناس شتى فحسب بل كان الشتات يمزق كل شيء يمكن أن يجمعهم.

وواجه المشروع قوى محلية مناوئة: مختلفة البواعث والغايات.

بـإزاء ذلـك كلـه كان الملـك عبدالعزيز - والذيـن معه - يناضـلون فـي أكثر من جبهـة: ابتغاء مواجهة هـذه التحديات العاتية المتعددة.

لئن كان هذا هو الحال على المسـتوى المحلي فإن الظروف الإقليميـة كانـت تمثـل تحديـاً رهيبـاً كذلـك لهذا المشـروع الحضاري الكبير.

كانـت البلاد العربيـة ملفوفة في ظلمات مـن التخلف: في هذه الصورة أو تلك.

وكانت صـيحات الإصلاح والتجديد تنادي الأصم من مكان بعيد.

وكان الاسـتعمار قـد احتـل الأرضـ والإدارة والاقتصـاد والتعليم والسياسـة الخارجية، وكانت الدولة العثمانية في طور الذبـول بعد أن أنهكتها حمى الجهل والتعصـب والجمود وعقم الإدارة.

وكان الفكـر السياسـي العربي - بوجه عام - مضـطرباً بل ضائعاً تائهاً.

إن هـذه التحديات التي واجهها مشـروع الملك عبدالعزيز أو أنموذجه الحضـاري الجديد إنما هي مجرد أمثال، وإلا فإن

الخوض في التفاصيل الاستقرائية يتطلب تأليف كتاب كامل مستقل.

والسؤال المركزي أو الجوهري هو: ما أسباب نجاح هذا المشروع الحضاري الشامل من خلال قرن مملوء بالتحديات من كل نوع؟

ثمة أسباب وعوامل عديدة وراء هذا النجاح منها:

١- صحة الاعتقاد وصلابته؛ فإن نهضة لها أصل ديني راسخ لا تستقر ولا تنجح إلا بصحة الاعتقاد وصلابته. وهي صلابة لها أثرها الحاسم في مواجهة التحديات والمواقف العصيبة. ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[1].. وهذا إبداع إيماني.

٢- وضوح المنهج؛ فهذا المشروع الحضاري التجديدي اتخذ الإسلام نهجاً يهتدي به في نظام الحكم وحياة المجتمع، وبذلك تفادى (التيه الفكري والدستوري) الذي تورطت فيه مشروعات أخرى.. وهذا إبداع فكري منهجي.

(١) الأنعام: ١٣٥.

٣- العقلانية التي تأخذ بمقياس ترجيح المصالح والمفاسد في إدارة الدولة والمجتمع والعلاقة مع الآخرين وعلاقة التراضي والتآخي والتعاون بين الحاكم والمحكوم.. وهذا إبداع عقلاني سياسي.

٤- الوحدة الوطنية العاصمة من التبدد والتفتت أمام الأزمات والتحديات.. وهذا إبداع اجتماعي أمني.

٥- التوازن بين المحافظة المبصرة والتجديد الرشيد.. فلا جمود ينتحل المحافظة ليفوت على البلاد مصالح حقيقية، ولا تجديد وهمي يشترط التضحية بالثوابت من أجل تحقيق المصالح.. وهذا إبداع حضاري مدني.

ويمكن أن ندير الكلم ونوجه السياق بطريقة أخرى فنقول: إن مشروع الملك عبدالعزيز يمكن أن يوصف - موضوعياً وعلمياً - بأنه (نهضة التنوير) الأصيلة في جزيرة العرب، بل في العالم الإسلامي في العصر الحديث.

و(التنوير): إبداع من الإبداع، بل هو ذروة الإبداع ومناخه وبيئته.

كيف؟

مهما يكن من شأن، فإنه لمن الخطأ الجسيم النفور من كلمة (التنوير) ومقاومتها، فالكلمة عربية أصيلة فصيحة،

فالتنوير - في لغة العرب - هو: الإنارة، وهو مشتق من كلمة (نور)، وللتنوير أصله العظيم، ومصدره اليقيني في منهج الإسلام:

أ- فالقرآن نور: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾[١].

ب- والرسول صلى الله عليه وسلم نور: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[٢].

ج- ومهمة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم -: إخراج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾[٣].

وحركة التنوير (دورية) أو ينبغي أن تكون دورية في حياة المسلمين في مختلف العصور.. بمعنى أنه كلما خيم الظلام على حياتهم: توجب القيام بنهضة تنويرية، وهذا ما فعله الملك عبدالعزيز بتوفيق الله؛ إذ قاد نهضة التنوير في جزيرة العرب بإرادة قوية وعقل متفتح مستنير.

---

(١) النساء: ١٧٤.

(٢) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٣) إبراهيم: ١.

ومما لا ريب فيه أن أعظم منطقة ينبغي أن تنوّر قبل غيرها بنور الحقيقة هي منطقة العقل والقلب في الإنسان.

وهذا ما ابتدرته يد المصلح المجدد المبدع رحمه الله.

فالتوحيد الحق كان قضيته الكبرى في نهضته التنويرية، ولربما كانت مصلحته السياسية - بمقياس السياسيين الذين لا مبادىء لهم - أن يجامل أو يغضي.

ولكنه آثر التوحيد على غيره من المكاسب، .. ويتعين التنبه إلى أن التوحيد نفسه هو أعظم المكاسب بالمقياس الصحيح وعلى المدى الطويل ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۝٥٥﴾[1].

يقول الملك المؤمن الموحد: «كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، والله وبالله وتالله أقدم دمي ودم أولادي وكل آل سعود فداء لها، هذه هي عقيدتنا وهي عقيدة مبنية على توحيد الله عز وجل خالصة من كل شائبة، منزهة عن كل بدعة».

---

(١) النور: ٥٥.

والتنوير بالتوحيد يتطلب مطاردة مظاهر الشرك والخرافات والبدع والأوهام.

وهذا ما نهض به هذا الملك المجدد.. ويسجل الشيخ البشير الإبراهيمي هذه الحقيقة العقدية الاجتماعية الحضارية فيقول: «ثم عمد إلى جذور الفساد والبدع والمنكرات التي تأصلت في البلاد طيلة عهود الظلمات، فاجتثها بيد قوية وبنفس مؤمنة واثقة بالله»[١].

وبدهي أن تحرير الناس من الخرافات والأوهام العقدية والفكرية مفهوم أصيل من مفاهيم (التنوير) الإسلامي.

فبالتحرر - بالتوحيد - من هذه المضلات والأغلال المثبطات تحررت العقول وتهيأت للعلم والمعرفة، وتوثبت الإرادة للعمل والإنجاز.. يقول الإبراهيمي نفسه: «ولقد أخذت الحركة العلمية تنتشر بعد ركود طويل، وصارت المدارس تفتح أبوابها في مختلف المدن والقرى، وقوامها دين الله الصحيح، وقرآنه المطهر، ولغته الفصحى، وعلوم الحياة التي كان القرآن أول من كشف الستار عنها في العالم، وفجر ينبوعها العذب للباحثين والمكتشفين»[٢].

(١) الملك الراشد ص ٤٠٩.

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٩.

ومن المفاهيم التنويرية الأخرى التي استصحبها الملك عبدالعزيز في نهضته:

- التنوير بمفهوم المدنية السديد الرشيد المفيد.. يقول: «إن المدنية الإسلامية التي سطع نورها في العالم وكانت أساساً لنهضات الأمم الأخرى: لم تكن مدنية مزيفة تقتصر على الزينات والماديات، وإنما كانت مدنية علم وعمل، وحث للمسلمين على التمسك بالشريعة السمحة»[١].. وهذا إبداع.

التنوير بـ (المهمة التجديدية) لولي الأمر أو الحاكم.. يقول الملك المبدع فكراً وتطبيقاً: «إنني أرى أن من واجبي ترقية جزيرة العرب والأخذ بالأسباب التي تجعلها في مصافّ البلاد الناهضة مع الاعتصام بحبل الدين الإسلامي الحنيف»[٢].. وهذا إبداع.

- التنوير بمفهوم العروبة الصحيح يقول: «أنا عربي، وأحب عز قومي والتآلف بينهم، وتوحيد كلمتهم، وأبذل في ذلك مجهوداتي ولا أتأخر عن القيام بكل ما فيه مصلحة للعرب، وكانت العرب قبل ظهور الإسلام خاضعة لسلطان غيرها، ولما بعث النبي -صلى

(١) المرجع السابق: ٣٦١.

(٢) المرجع السابق: ٣٦٠.

الله عليه وسلم- أصبح العرب سادة، وقد تم لهم ذلك بكلمة التوحيد وهي: لا إله إلا الله»[١].. وهذا إبداع.

- التنوير بالمفهوم القويم (الرحب) للسلفية.. يقول: «يسموننا بالوهابيين، ويسمون مذهبنا الوهابي، وهذا خطأ فاحش نشأ من الدعايات الكاذبة التي يبثها أهل الأغراض، ونحن لسنا أصحاب مذهب جديد، أو عقيدة جديدة، فعقيدتنا عقيدة السلف الصالح، فنحن نحترم الأئمة الأربعة ولا فرق بين الأئمة: مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفه، كلهم محترمون في نظرنا»[٢].. وهذا المفهوم التنويري الرحب للسلفية إبداع وتجديد.. ولا سيما في عهود التعصب المذهبي الذي يفرق ولا يجمع، ويضيق دائرة الأخوّة الإسلامية الواسعة.

بهذه المفاهيم التنويرية التجديدية الإبداعية: سلمت نهضة الملك عبدالعزيز من نزعات الانحراف العقدي والفكري، واتجهت إلى البناء الصحيح: بناء الانسان وبناء العمران الحضاري.. وهذا إبداع كذلك.. فما هو بتنوير صحيح ذلك الذي يمزق الناس - بالوهم والافتعال - بين أمور مؤتلفة يحسبها متناقضة: إما التوحيد وإما العلم.. إما المدنية .. وإما الشريعة. فليس هناك تناقض قط بين القيم بمفاهيمها الصحيحة وبين متطلبات العصر الحقيقية لا الوهمية.

---

(١) المرجع السابق: ٣٧٢.

(٢) المرجع السابق: ٣٦٩.

وينبغي أن يدرج وصف مشروع الملك عبد العزيز بـ (الإبداعي) في منهج التحقيق العلمي والتصوير الموضوعي، لا أن يدرج في تهويمات الغلو والمبالغة الدعائية.

لماذا؟

نذكر ثلاثة أدلة - فحسب - على الموضوعية في الوصف والتصوير:

أ- **الدليل الأول هو**: أن الملك المؤسس: أبدع مشروعه بنفسه - بعد توفيق الله - فهو لم يقلد في ذلك أحداً.. فلم يكن هناك مشروع معاصر يقلده.. على عكس ذلك، كان الرجل يسبح (ضد التيار العام).. فجميع المشروعات والنماذج التي كانت سائدة: إما قومية متعصبة.. وإما علمانية استدبرت الدين وتجهمت له وفصلت نفسها عنه.. وإما تخلف وجمود: اتسم بالوطنية حيناً واصطبغ بالصبغة الدينية الجامدة حيناً آخر.

وعدم التقليد: إبداع بلا ريب، وإلا فكيف يكون الإبداع؟

ب- **الدليل الثاني**: أنه اختار طريقاً عقدياً وفكرياً وحضارياً مستقلاً متميزاً.

«والاختيار الحر..» والاستقلال المتميز: إبداع بلا شك، فمن تعريفات العالم أو المفكر المبدع - مثلاً - الاستقلال والتميز في طريقة التفكير وخيارات التوجه.

ج- **الدليل الثالث**: الجمع الوثيق بين (التوحيد والإبداع).. وإزالة التناقض بين القيم - مما يتوهم الناس أنه تناقض -: إنما هو إحياء للمفهوم الحق.. والإحياء نوع من التجديد والإبداع.

هذه حجج ثلاث تبرهن - بوضوح وحسم - على (علمية ومنهجية وعبقرية مفهوم: التلازم بين الإبداع والتوحيد):

أولاً: الحجة القرآنية في الربط بين التوحيد وبين النظر النابه والتفكير الذكي اللذين هما منبع الإبداع وأداته.

ثانياً: حجة (اللقيا التطبيقية) بين التوحيد والإبداع في الحضارة العربية الإسلامية.

ثالثاً: حجة (الإبداع التطبيقي) في ظل التوحيد: في نهضة الملك عبدالعزيز.

■ والتمام المنطقي الأمين لهذا المبحث هو أن كل ما تقدم برهان مكثف مشبع على صحة وعبقرية مفهوم الأمير سلمان في أن الإبداع يمكن أن يتفجر ويتدفق في مناخ التوحيد أو - بتعبيره هو - في ظل: لا إله إلا الله.

وفي المبحث الآتي نتبين في سلمان نفسه: الإبداع الحضاري في ظل لا إله إلا الله.

سلمان نفسه: الإبداع الحضاري في ظل لا إله إلا الله (الجانب العقدي والفكري)

مفهـوم سـلمان (الإبداع في ظل لا إلـه إلا الله) ليس جملة مفـردة ولا كلمة (معزولة) عن السـياق العـام والمنهج الكلي للإسلام.

ومن هنا تتأتى قيمته العلمية ومكانته المنهجية واسـتنارته الفكرية.

إن الحضارة العربية الإسلامية كلها انبنت على (كلمات):

أ - ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ..﴿١١٥﴾﴾[١].

ب- ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُـولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّـذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ...﴿١٥٨﴾﴾[٢].

ج- ﴿أَلَـمْ تَرَ كَيْفَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ...﴿٢٤﴾﴾[٣].

د- ﴿قُـل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴿١٠٩﴾﴾[٤].

---

(١) الأنعام: ١١٥.
(٢) الأعراف: ١٥٨.
(٣) إبراهيم: ٢٤.
(٤) الكهف: ١٠٩.

obeikandl.com

ج- ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾[١].

والقـرآن كلمات: انتظمها ٦٠ حزباً و٣٠ جـزءاً.. وأكثر من ستة آلاف آية.

وأعظـم (الكلمـات) - بإطلاق - ونبعهـا الأول الرائق هي كلمة (لا إله إلا الله).

فما شأن سلمان بن عبدالعزيز مع هذه (الكلمة) الجليلة؟

شأنه معها عقدي وفكري.

حين يرسّـخ سـلمانُ مفهومَ (الإبداع في ظل لا إله إلا الله) فليـس يتحدث إلى الآخرين وينسـى نفسـه.. فمـا عرفنا هذا التناقض لا في حياته الخاصة، ولا في حياته العامة؟.

إن لهـذه الكلمة شـأناً عظيماً في حياتـه العقدية والفكرية وفي أدائه التطبيقي العملي:

١- من أقواله الواضحة الواثقة المؤمنة: «إن هذه الدولة قائمة علـى الكتاب والسـنة، وستسـتمر علـى ذلـك، وليرضَ من يرضى، وليغضب من يغضب، فلا تبديل لشرع الله».

(١) النمل: ٦.

■ لا تبديل لشرع الله.

هذا ذروة التوحيد.

كيف؟

من خصائص التوحيد الخالص أن التشريع الأصيل إنما يكون لله وحده: في الاعتقاد والعبادة وأصول الأحكام والتحليل والتحريم.

وبهذا نطق القرآن:

أ - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾[١].

ب- ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ.. ﴿٤٩﴾﴾[٢].

ج- ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾[٣].

نعم.. لا تبديل لشرع الله.. هذه هي عقيدة سلمان بن عبدالعزيز القوية الناصعة.. أما سن الأنظمة التطبيقية أو تفصيل التشريعات فإنه من أعلى الأصوات مناداة بذلك[٤].

---

(١) الجاثية: ١٨.

(٢) المائدة: ٤٩.

(٣) النحل: ١١٦.

(٤) راجع إن شئت مبحث (المفهومان المستنيران للدين) من هذا الكتاب.

٢- **سلمان بن عبدالعزيز، ومسألة: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...﴿٧﴾﴾.**

هو رجل دولة.. لا ريب في ذلك.

وهو رجل سياسة.. لا ريب في ذلك.

وحاكم إداري مقتدر.. لا ريب في ذلك.

فما الذي يجعل رجلاً هذه اهتماماته ومشاغله وهمومه وأعماله وقضاياه؟

ما الذي يجعل رجلاً هذه مهامه: يهتم وينشغل بمسألة عقدية (أكاديمية) إن صح التعبير؟

مسألة ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...﴿٧﴾﴾[١].

لقد جرى حوار فكري عميق وموسع بين سلمان بن عبدالعزيز وبين مؤلف الكتاب حول هذه القضية التي لا يتصور أحد أن رجل دولة وحاكماً إدارياً يطرقها في هذا العصر!!!.

والباعث على الحوار - الذي ابتدره سلمان - ليس إنشاء الإيمان؛ ذلك أن الإيمان ثابت ومستقر بحمد الله.

---

(١) هود: ٧.

وإنما مبعث الحوار زيادة الإيمان بمزيد من المعرفة، وهذه ذاتها قضية إيمانية كبرى.. فمن المقررات العقدية الثابتة: أن الإيمان يزيد وينقص.. ومن الأدلة على زيادة الإيمان - مثلاً -:

أ- ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا...﴿٢﴾﴾[١].

ب - ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا...﴿٣١﴾﴾[٢].

والاستبحار في العلم والمعرفة من أوسع وأخصب منابع زيادة الإيمان.

ولقد استقر الحوار الراقي والماتع والجاد على:

أ- أن الماء في الكون نشأ بعد (الانفجار العظيم) - بمصطلح الفيزيائيين - أو بعد (الفتق) - بتعبير القرآن -.. والدليل هو الربط بين الفتق والماء في آية الأنبياء: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴿٣٠﴾﴾[٣].
لكأن الفتق كان مقدمة نظامية وجودية لوجود الماء، بل هو كذلك في حقيقة الأمر.

---

(١) الأنفال: ٢.
(٢) المدثر: ٣١.
(٣) الأنبياء: ٣٠.

ب- مـن هنا يُعلم بيقين أن الماء الذي عليه عرش الرحمن سـابق ومغاير للماء الكوني المعـروف لدينا الذي كان بعـد أن لـم يكن.. بدليل قـول النبي - صـلى الله عليه وسـلم -: «**وكان الله، ولم يكن قبله شيء، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض**».

وباسـتقرار الحـوار الذكـي المؤمـن -الذي ابتـدره وأداره سـلمان-: أخذت أفكر بعمق وعجب فـي اهتمامات هذا الرجل الكبير المتعدد الطاقات والمواهب.

ومن خلال التفكير توصلت أو استنبطت النتيجة الآتية وهي:

أن الاهتمـام العالـي الجاد لا يدل على فطنـة عقدية فائقة فحسـب ولا علـى (علو الهمـة) فحسـب، وإنما يـدل - كذلك على (اختيار وتحري) المنهج الصـحيح فـي النظر والبحث و (التفكير الحر) ذلك أن هذا الاختيار يدخل في صميم المنهج المعرفـي العقلاني، وهو (البحث عن كيفية بدء الخلق).. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...﴿٢٠﴾﴾[1].

وبعض النـاس يحصـر السؤال: كيف بدأ الخلق؟ في البحث

(١) العنكبوت: ٢٠.

عن (التاريخ البشري) المكتوب وغير المكتوب، سواء تمثل هذا التاريخ في اللغات واللهجات أو العملات والحفريات أو أصل الإنسان وغير ذلك من الآثار التي تدل على تاريخ البشر.

ولا شك في أن سؤال: كيف بدأ الخلق يشمل ذلك. ولكنه في حقيقته أوسع وأقدم وأطول مدى وأعظم شأناً وقيمة.

كم وددنا أن تجلس الأجيال النابهة إلى سلمان بن عبد العزيز لكي تتعلم منه هذه الحوارات المفعمة بمفاتح المعرفة الحقة التي تزيد الإيمان وترفع قدر الإنسان.

كم وددنا أن تتعلم الأجيال منه كيف يتصل حاضرنا بماضي أوائلنا الذين كانوا يمارسون (التفكير الحر) في أعلى مناسيبه ودرجاته، ويثيرون أمهات القضايا وأعظمها شأناً.

إن هذه القضية العظمى التي طرقها سلمان أثارها من قبل في عهد النبوة صحابةٌ أحرار التفكير، أحرار الضمير، ففي الصحيح: أن قوماً سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر !!! فقال النبي «**كان الله، ولم يكن قبله شيء، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض**»[١].

(١) رواه البخاري وغيره.

ولا غـرو.. ولا عجب فـي أن تكون حوارات سـلمان امتداداً لتلك الحوارات الإيمانية المبكرة، فهو عربي صريح، وهو مسلم زاده الإسلام وضوحاً وشفافية وعلو همة في التسامي بالمسائل الكبرى إلى ذروتها ونهايتها.

obeikandl.com

(النظرية في مجال التطبيق)

الإبداع العمراني الذي قاده سلمان في الرياض

صَدَح سلمان بن عبد العزيز ونادى بـ (التناغم) بين التوحيد والإبداع.

نادى بذلك - فكراً وقولاً -.

ثم صَدّق ما نادى به في (الميدان العملي): المشاهد والملموس والحي المتحرك.

ويتمثل هذا التصديق العملي في (قصة الإبداع العمراني الحضاري في الرياض).

وقبل قراءة هذه القصة الماتعة المحبوكة الجميلة ندعو إلى التأمل في حقيقتين لهما صلة وثقى بهذه القصة:

١- **الحقيقة الأولى هي**: أن الإبداع التطبيقي في ظل لا إله إلا الله لا بد من أن يكون خيّراً صالحاً طيباً كله، سلاماً كله.

فلئن التقى البشر في (السنن الكونية المشتركة) من حيث العمران الحضاري فإن الفارق هو أن العمران المغذّى بالإيمان يتسم بالصلاح والطيب والخير: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ**

أَشْـيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ...﴿٨٥﴾﴾[١].

نعم.. ليس الاختلاف بين الناس في أن بعضهم يعمل ويكدح على حين أن البعض الآخر يتبطل ويركد. فكل إنسان خلق ليكدح ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَـانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّـكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ...﴿٦﴾﴾[٢] وإنما يكمن الفرق في صـلاح الكدح أو فسـاده.. في اسـتقامة العمران أو انحرافه.

٢- **الحقيقة الثانية** (بين يدي قصة الإبداع العمراني الحضاري التي كتبها سلمان بلغة الفعل على أرض الرياض).

هـذه الحقيقـة الثانية هـي أن العمران الحضـاري العربي الإسلامي قد ارتوى من حقيقة التوحيد واهتدى بنورها.. يقول أوليج جرابار أستاذ تاريخ الفنون الإسلامية في جامعة هارفارد: «لا نكاد ننتقل إلى القرن السابع الميلادي[٣] أي: المرحلة التي بدأ يتكوّن فيها للإسـلام ثقافة عالمية الأبعاد حتى تتوفر لدينا معارف أفضـل كثيراً عن العمـارة والفن العربيين، فبينما كان

(١) الأعراف: ٨٥.

(٢) الانشقاق: ٦.

(٣) بدأ نزول الوحي على رسول الإسلام محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم في مطالع القرن السابع الميلادي: عام ٦١٠م تقريباً.

الإسلام يمد ظلال العالم العربي من سهوب آسيا الوسطى حتى جبال البرانس كان الصنّاع اليدويون يستحدثون تقنيات جديدة، والمعماريون يبتدعون أنماطاً جديدة من المباني، وكانت وظائف العمارة السابقة تكتسب أشكالاً جديدة، ويعم معظم أرجاء الإمبراطورية الإسلامية تصور جديد لأشكال التعبير المرئية.

«وصحيح أنه كان لهذا التعبير الجديد جذور من الماضي، وأن الحضارة الجديدة اقتبست واستخدمت أشكالاً فنية كان منها الفارسي والبيزنطي والروماني، وكان منها ما نشأ في آسيا الوسطى، ولكن هذا الاقتباس كان في جميع الأحوال تقريباً مصحوباً بالتغيير، مصبوباً في أشكال جديدة، على نحو يلفت النظر باتساقه واطراده، ويكسب التالد المطور، والطارف المستحدث حياة خاصة مميزة، كان خلالها - في ازدهارها وذبولها ثم تجددها عبر العصور - يصبحان الخصيصة المجسدة المنظورة للعالم الإسلامي، ويحيطان المؤمنين من المغرب إلى أندنوسيا ببيئة متميزة لا تخطئها العين، ولا يخفى على غير المسلمين ما تمثله من ظاهرة فريدة.

«واستطاع المسلمون أن يجسدوا قيمهم الروحية وحاجاتهم المادية في مرئيات تتصف بالرمزية والجمال.

«وإذا كان التفاعل قد أسفر عن حضارة مثيرة للإعجاب فذة الشخصية فالفضل في ذلك يعود إلى العقيدة الإسلامية التي فجرت طاقات العرب؛ إذ كان الإسلام حاسم الأثر في مسار الإبداع الثقافي»[١].

(١) عبقرية الحضارة العربية: أوليج جرابار ص ٨٩-٩٠.

obeikandl.com